اللّغة والثورة في تونس: قراءة في الدّلالة

د. محسن بوعزيزي *

١) هل قلتم ثورة ؟

أهتمُّ في هذا النّصّ بإشكالية العلاقة بين اللّغة والثورة في تونس. وأستعمل مفهوم الثورة مستندا في ذلك إلى التّسمية التي أطلقها الفاعلون على فعلهم. ورأيي أنّنا، إلى حدّ الآن، إزاء نزعة ثوريّة (Tendance révolutionnaire) لا يمكن الحكم لها أو عليها قبل أن تحقّق مقاصدها وأوّلها القطيعة، القطيعة مع الماضي، تعلّقًا بالحرّيّة والكرامة والعدالة، حسب شعاراتها، وفي الحدّ الأدنى، وإذا ما تعذّرت القطيعة بقوّة قبضة المجتمع التقليدي، أن نسعى باتجاه التقدّم .(progrès) نحن مقبلون على احتمالات مختلفة ومنها احتمال الثورة، ولكن أيضا على احتمال نفي الثورة، أو ضد الثورة، حين تصبح الحداثة وصمة تخشى الإعلان عن نفسها، أو يتحوّل الوضوح عورة، فيختفي الجسد تحت السّواد عوض الحديث عن حرّيته في نزعة ثائرة، أو يصير الواقع حافلا بمعاني السلفيّة تحت عنوان الحرّيّة فتثبت بقدرتها المناورة على التّقدّم يسارا، وتستدرجك إلى أسئلتها ورموزها ومنها الهُويّة، ويتحوّل التنوير إلى نور، نور الماضي. لهذا نحن إزاء نزعة ثورية لم تحسم أمرها بعد، ينكشف فيها ما كان تحت الرّماد بمختلف تعبيراته وتناقضاته. وسيؤول أمر هذه النزعة، بعد تصفية حسابات مختلفة، إلى القوّة الاجتماعية التي تعبّر عن طبيعة اللّحظة التاريخيّة وتمثّلها، وأظنّ أنّها لازالت قيد التشكّل. وستعلن النزعة الثورية عن نفسها حين تنضج طبقتها الاجتماعية وتخلق لغتها وتعبيراتها إبداعيا وفكريا وأيديولوجيا ولغويا ورمزيا، وأظنّها لا زالت جنينية في رؤوس أطفالنا.

عام على الثورة وعيون عليها. فهل حقّقت مقاصدها؟ أو بعضها؟ أو أنّها مقبلة على احتمالات مختلفة ومنها

---

* باحث تونسي

الثورة أو نفيها؟ يبدو لي أنّنا إزاء نزعة ثوريّة لا يمكن الحكم لها أو عليها حتّى الآن، في انتظار أن تذهب في اتجاه القطيعة، بما فيها من تغيير جذري عميق، أو في الحدّ الأدنى أن تسعى باتجاه التقدّم. على أنّ احتمال نفي الثورة يظلّ هو أيضا احتمالا واردا، ليس فقط لأنّ الانتكاسة السياسيّة يمكن أن تحدث، فتُرجِعُ النظام السابق بشكل مختلف ويصبح ما أُنجز باهظ التّكاليف، بل لأنّ فكر الثورة الذي كان يمكن أن يكون محرّكها وضامنا لمسارها لم يعلن عن نفسه بعدُ، ولم يحرّض إلى حدّ الآن على ثورة في المعنى، ممّا جعلنا نتورّط هذه الأيّام في تعبيرات احتجاجية مطلبيّة وقطاعيّة ضيّقة، في كلّ مكان تقريبا ، دون تقديم للمعاني الثوريّة الكبرى من قبيل الحرّيّة ومناقشة طبيعة النظام الاقتصادي القادم.

وتجد فرضية النّزعة الثوريّة بعض عناصر قوّتها وتماسكها فيما رأيناه في السّاحات العامّة، في مدن مختلفة، وخاصّة في شارع بورقيبة بعد عام من الثورة من عنفوان الفضاء العام الذي بدأ أفراده يتناقشون قضايا الشأن العام وجها لوجه بطريقة حرّة وعقلانيّة ويضعون الأسئلة الجديدة. وهذا هو الوجه المريح في كلّ ما يحدث، والذي يَعِدُ بمشروع ما جديد يلوح في الأفق، لا يزال قيد التّشكّل بعسر، يبحث عن عناصره التائهة هنا وهناك. وقد يظلّ المشروع «في حضرة الغياب» إذا ما اتّسع الضّيق الفكري الذي يتلبّس نخبنا، وتمادي عجزها على أن ترى المستقبل، فترى ما لا يُرى، وخاصة إذا ما استمرّ كسلها في القبض على اللّحظة المعرفية التي تقترحها الثورة وصياغة بدائلها. هذه لحظة انبعاث شعب لم يجد أمامه متّسعاً من الفكر الجديد فراح يعتني بماضيه ويأخذ الكتاب بقوّة لأنّه صالح لكلّ زمان ومكان، وله في ذلك حكمة. ولكنّ أطفالنا الذين تفتّحت أحاسيسهم على سجع الثورة سيكونون أكثر تأهيلا منّا على بلورة أفق جديد للمعنى الثوري الخلاّق. وإنّ أهمّ إنجاز تفعله سلطتنا الحاليّة أن تحافظ على الصيغة المؤقتة لسلطتها، فأطفالنا قادمون. وما علينا سوى تعليمهم وتدريبهم على «التمرّد» على السائد لخلق البدائل الآتية. وعلينا تعليمهم أنّ الثورة التزام، التزام بالحرّيّة كما يقول جون بول سارتر، حرّية الجسد، وحرّيّة الرأي والفكر والإبداع. وسيكون من المستحسن أيضا تعليمهم البحث عن الاختلاف في كل شيء لأن التّشابه سلوك القطيع.

٢) متن الحرّيّة في لغة الشّعار:

أجمع في مدونتي بين المنطوق اليومي والشعارات التي رفعت في وجه النّظام التونسي، بدءا من سنة ستّ وألفين وصولا إلى يوم هروب رأس النّظام. وأحاول أن أمسك ببعض القواسم المشتركة التي تجمع بين مختلف مفاصل هذه المدوّنة،واستند في هذا، ولو جزئيا، إلى القراءة السيميولوجية، بما هي مغامرة في الدّال. وأثناء التصنيف، واللّعب بالكلمات والتساؤل عن المرجعيات، تنبّهتُ إلى قاعدة أولى لافتة للانتباه مفادها أنّ الشّعارَ يساريٌّ بالضرورة. القوى الدينية السياسيّة تُكبِّر وتهلّل ولا ترفع شعارا، سواء أكانت شيعيّة (لبنان، إيران) أو سنّيّة أو سلفيّة. الكابح الديني يمنع هذه القوى من أن تُبدع شعاراتها. ثمّ إنّ هذه القوى ظلّت تراقب

المشهد وتفاعلاته، حذرةً، غير مطمئنّة، ولم تُعلن عن نفسها جهارا إلاّ بعد ١٤ جانفي / كانون الثاني٢٠١٠.

القاعــدة الثانية تفيد أنّ لغة الثورة، أو اللّغة في الثــورة، تنتقل بنا، بغتةً، وعلى غير المتوقّع، من «براديغم» الهُويّة والخصوصيات المحلّيّة إلى «براديغم «الحرّيّة بنزعتها الإنسانيّة، الكونيّة. ويبدو أنّ المرور من الهموم المحلّية إلى أســمى القيم الإنســانية، بعد فقدان الرّجاء، كان من أهم العناصر التي دفعت باتجاه التعاقد على مصطلح الثورة في الاســتعمال الاجتماعي اليومي وإســنادها هذا الاهتمام العالمي. يتجلّى هذا من كثرة تواتر الكلمات التي تحيل إلى القيم الإنسانيّة: «حرّيّة، عدالة اجتماعية، كرامة وطنية، «حرّيات، حرّيات، لا رئاسة مدى الحياة»، «الشعب يريد، شغل، إسقاط». وظنّي أنّ هذه اللّغة التي ترفع شعار الحرّيّة هي التي أعطــت قيمة كونيّة لهذه الثورة. هذا المرور محيّر، لأنّه مباغت، ويأتي في لحظة اختنق فيها التاريخ وطغت العدميّة وتصاعد اللاّمعنى، فلم يعد لنا في هذه الأرض من وازع إلاّ أن يمرّ يومنا بســلام، تمهيدا لليل يعقبه نهار آخر دونما همّة في الإنشــاء عالية، فإذا بنا نتعلّق بالأبعاد الإنســانية الأكثر قداســة ونبلا، وإذا بالشّعب يُخرج الحيّ من الميّت. وأتعمّد اســتعمال مفهوم الشّــعب تنبيها إلى ما كانت فيه من طّاقة إنجازية تُعلن عن الهويّة الشعبيّة لهذه الثورة.

وأراني اليــوم أكــثر قدرة على فهم الســدّ ومبرّرات كتابته من قِبَلِ المســعدي: الســدّ «كتابة جسَرت على معضلة الخلق»؛ حرقُ الجســمِ قهرا دفَع الكتل التي كانت تســمّى جامدة إلى دحض العدَمِ بالفعل الثوريّ الخلاّق، حينما فُهم الاحتراقُ حياةً وتُرجم ثورة. والقهرُ في لســان العرب اللحم إذا أخذته النّارُ وســال ماؤُه. هذا التأويل وما تلاه من فعل صار رديف الحرّيّة في لغة النزعة الثورية: «حرّيات، حرّيات، لا رئاســة مدى الحياة». ورغم ما عبّرت عنه الشــعارات من نزعة كونيّة، إنسانيّة، غير أنّها عادت لتكرّس «براديغم «الهوية الدينية في السياســة العمليّة، ولعلّه شــكل مرحلة ضروريّة في ســيرورة التغيير التي تبدأ بالصحوة الدينية، وبعدها يتحوّل النّقاش إلى المسائل الاجتماعية والاقتصادية والمعرفية والجماليّة.

٣) سقطت البلاغة وظلّ السّجعُ:

القاعدة الثالثة تنبّه إلى ســقوط البلاغة بكل أشــكالها، بما هي كلام على الكلام أو لغة فوق - اللّغة Méta-langage، فــلا حاجة إليها هذه المرّة إلاّ في القليل. لقد تحوّلت الكلمة في اللّحظات الحاســمة إلى فعل، إلى رصاصة مباشرة، محاربة، غير مواربة، حتى كادت بما فيها من تحديدية تقود الثورة وتوجّه مسارها، مختزلة الزمن فيها. وهكذا يتبيّن مع أوستين كيف تصنع الأشياء بالكلمات. فالشّعب، حين يثور، لا يحتاج إلى بلاغة، بل إلى ملفوظ إنجازي يتّجه إلى الفعل فيسميه بدون مجازات. إنّها اللّغة- الموضوع « objet – Langage» التي تُســقط كل أصناف البلاغة من رمز وإيحاء ومجاز واســتعارة وكناية: «التشــغيل اســتحقاق يا عصابة السرّاق– يا بوليس فيق فيق، الحجامة تحكم فيك – خبز وماء ،وبن علي لا – يسقط حزب الدستور، يسقط

جلاّد الشعب». وبالرغم من أنّها كثيفة المعنى والدلالة، فإنها توقفت عند درجة الصفر من البلاغة، إلا من السّجع والإيقاع ،بما فيهما من جرسيّة لازمة وانضباط عسكريّ يسعى إلى تغيير حالة سياسية تتغافل، بصورة قصديــة أو عفوية، عن بقية الأبعاد ، كالثقافي والاجتماعي والاقتصادي. البلاغة شــعرية حمالة أوجه. أمّا في النزعة الثورية التونســيّة فلا وجود لوســيط بلاغي في اللّغة إلاّ المــرور إلى الفعل بغرض المواجهة والإطاحة بالحكومة: الشــعب يريد إســقاط الحكومة. إنّها لغة تسعى إلى تغيير الواقع بلغة إنشائية Performative، خالية من أقنعة البلاغة، فلا مجاز فيها ســوى الكلام لخلق واقع جديد. وإســقاط البلاغة معطى جديد في تاريخ الحروب العربية، إذ كانوا قديما يدقون طبول الحرب بالبلاغة الشّعريّة قبل خوض غمارها.

أقيموا بني أمّي صدور مطيّكم فإنّي إلى قوم سواكم لأميل

تلتقــي هــذه القاعدة مع ما تنبّه إليه رولان بارت في « Mythologies » حــين رأى في اللّغة الثوريّة لغةً لا أســطورة فيها. هذه الأخيرة يراها بارت نســقا ســيميولوجيا ثانياً متداخلاً أو متراكباً في نســق سيميولوجيّ أوّل . ولأنّها كذلك، نسق على النّسق، فإنّ الثورة بما هي فعل تطهيري Cathartique تقصيها من خطابها.

٤) زلاّت اللّسان:

هذه الفكرة التي تُنبّه إلى ســقوط البلاغة في لغة الثورة تســاندها فكرة أخرى تصرّ على كشــف المضمر عبر زلاّت اللّسان Lapsus، بما هي رغبة غير واعية، دفينة ومكبوتة، تفضح فساد النّظام، خروج مباغت عن النّص مــن شــدّة ما تضغط عليك الحقيقة الكامنة. تقول امرأة في إحــدى المناطق التخومية مرحّبة بن علي منذ خمس ســنوات تقريبا: «بفضلك هانا موتى بالشرّ»، بفضلك صرنا نتضوّر جوعا. وتقول أخرى أمّيّة في لحظة مواجهة دامية مع نظام بن علي الإقصائي: « لقد خرّجنا الاستعمار فمتى سنخرّج الاستقلال «. وفي ذلك قهر للّغة عبر التعريف بالضدّ وكشــف للصّواب عبر الخطإ وزلّة اللّســان. فرغم أنّه كلام نشــاز يخرج عن قصد المتكلّم، إلاّ أنّه يدفع الفرد إلى الوعي بحقيقته والقدرة على قولها عبر الزّلّة. لقد تمّ خنق الكلمة ومحاصرة التعبــير، حتــىّ لم يعد ثمّة من خيــار إلاّ «الكلام أو الموت» بتعبير مصطفى صفوان . فإذا بالكبت الســياسي والاجتماعي يفجّر طاقة تعبيرية هائلة ســاهمت في إسقاط نظام من أشدّ الأنظمة الاستبداديّة بُؤسا. الكلام أو الموت، هذا الخيار الصعب، أفضى إلى انبثاق الرّغبات الكامنة في التخلّص من النّظام قبل الثورة، ويتحوّل بعد ذلك اللاّوعي إلى وعي هادر وفصيح: « الشّعب يريد إسقاط الحكومة». وغالبا ما يُعتمد السّجعُ في بناء الشّعار، بما هو توافق الفاصلتين في الحرف الأخير :

بن علي يا جبان الشــعب التونسي لا يُهان - بن علي في الســعودية والعصابة هي هي- dégage dégage dégage يا خمّاج

وفي المثال الأخير يخرّج المنطوق التونسي سـجعه الخاص من لغة ممتزجة بين الفرنسـية والدارجة المحلّيّة. السّجع بإيقاعه وبتأثيره الانفعالي يوقظ الصمت واللامبالاة:

يا مواطن يا ضحيّه إيجا شارك في القضيّة

يا بوليس فيق فيقْ الحجّامة تحكم فيكْ

الكرطوش حي حيْ والحجامة في ديْ

والانفعال في هذه الشـعارات الرّافضة يأتي من الإيقاع الموسـيقى، أو ممّا يمكن تسميته بموسيقى الاحتجاج والرّفـض، إيقاع انفعالي لا يـترك لك مجالا للمحايدة واللاّمبـالاة، بل تخترقك الموجـات الصّوتيّة الجماعية فتقحمك في المشهد بالرّغبة أو بدونها.

٥) نزعة ثورية تحتاج إلى ثقافة:

القاعـدة الرابعة يمكن بلوغها حين نخرّج الحقل الدلالي الأوّل لشـعارات الثّـورة بناء على ما تكرّر فيها من ألفاظ وصور وما تقارب صوتا ومعنى. هذا الحقل الأساسي يشير إلى الرّغبة في القطيعة مع الفساد السّياسي دون أن يحمل، إلاّ في القليل، رؤية أخرى مختلفة للعالم، تعد بثقافة جديدة، فنّا وأدبا وعلما وأخلاقا وذوقا. فهـذه ثورة لم تكن مسـبوقة بوعـي ثوريّ أنتج فكره، خلافـا لبقية الثورات الأخرى البريطانية والفرنسـية والبلشـفية، التي كُتبت قبل قيامها. أما في مدوّنة الثورة التونسـية فقد كانت أكبر الغائبين، إذ ليس ثمّة ما يشير في إحالات الشّعار، بالرغم من يساريته، ونصّيته، إلى نزعة نحو خلق مجتمع جديد، تصوّرا وممارسة، يسـعى إلى تقويض بعض عناصر المجتمع التقليدي، إلاّ ما ارتبط فيه بالحياة السّياسيّة. ومن اللاّفت للانتباه أنّ الشعارات جلّها قد عادت إلى اللحظة التي توقفت فيها الحياة السّياسيّة في تونس. ولقد كانت الجامعة التونسيّة مصدرها الأوّل. ولمّا احتاجت هذه الثورة إلى صوت يضبط إيقاعها، فإنها لم تجد غير ما خلّفه اليسار الطلاّبي، وما صاغته الجامعة وبعض الأحزاب منذ أواخر سـتينات القرن الماضي حتى أواسـط الثمانينات من علامات احتجاجية مناهضة للسلطة. ولو قرأنا هذه الشّعارات في مستواها الدياكروني، العمودي، لوجدناها تتجانس مع التطوّر السّـياسي والفكري والأيديولوجي للجامعة التونسـية في حـركات مدّها وجزرها. فعلى سـبيل المثال، يتطوّر هذا الشّـعار تصاعديا من الأرض إلى الخبز إلى الشغل: أرض، حرية، كرامة ،وطنية، ثمّ خبز، حرية، كرامة، وطنية، لينتهي في الأخير بشغل حرّيّة، كرامة وطنيّة. هذا الشّعار الذي ارتبط بما اصطلح عليه عند اليسار «بالعائلة الوطنيّة الديمقراطية»، يكاد يختزل مسار التطوّر السياسي والأيديولوجي للجامعة التونسية في شقّها اليساري بالخصوص، إذ لم يكن فيها يمين بارز إلاّ لاحقا. لم يكن لهذه الثورة إذاً من بديل ثقافي غير البدائل التي كانت سائدة قبل عهد بن علي الذي أجّل الثورة، وقد بدت في تلك الفترة تظهر بعض

علاماتها في ذبذبات ثورية (Impulsion révolutionnaire) تحالفت فيها مختلف طبقات المجتمع، سرعان مــا أجهز عليها بن علي بجهاز بوليسيّ خانق. الثقافــة كانت في «حضرة الغياب» على غير ما كان معلوما في لغة انتفاضة ماي أيار ٦٨ في فرنســا، التي أســقطت «براديغمات « أنتجت أخرى. لقد كان في علاماتها ما يشير إلى نزعة مناهضة للمجتمع التقليدي وللرأسمالية وللإمبريالية:

- ليســقط مجتمع الاســتهلاك - ليســقط مجتمع السوق- لتسقط الاشــتراكية الواقعية، عاشت السريالية - لتسقط الدولة- ليسقط العالم الهرم A bas le vieux monde- الفعل لا ينبغي أن يكون ردّة فعل بل إبداع L'action ne doit pas être une réaction mais une création.

الثورة التونسية لا تعد للوهلة الأولى في مدوّنتها اللّغويّة بثورة في الثقافة. وقد امتدّ هذا الغياب بفعل التأثير ليطال بقيّة الجغرافيات العربية الثائرة، ومنها اليمن التي تربط في أحد شــعاراتها ربطا شرطيّا بين الإضراب عن الدّراســة وسقوط الرّئيس: «لا دراسة ولا تدريس حتى يســقط الرئيس». وهو بالمناسبة شعار يستعيد إيقاعا تونســيا رفع ســنة ستّ وسبعين وتسع مائة وألف عند ظهور ما يسمّى بالحرس الجامعي: «لا دراسة ولا تدريس حتّى يخرج البوليس». ولكن، حتّى نكفّ مرّة واحدة عن جلد الذات، أو ليست الثورة، والإيمان بها، بصرف النظر عن تحقّقها، ثقافة في حدّ ذاتها. الثقافة الحقّة، يقول ســارتر، هي الثورة عينها، تلك التي تطبــخ على نار حامية ، كأن يصرخ شــعب أمــام وزارة الداخلية، مصدر قوّة الحاكــم، ويأمره قيصريّا صوتا وحركة: «Dégage». الثورة ثقافة، بحلوها ومرّها، بعنفها وســلمها، بكلماتها وســجعها، وذبذباتها ووهجها، بإيقاعها الخاص وغير المسبوق. من يتكلّمها، ويكتب قصّتها على الجدران، ويرسمها، وينسج ملحمتها، شعبٌ في مخاض ثوريّ، وفي معركة وجود. وكل من حاول احتكار صوته إلاّ واكتوى بناره.

وما يمثّل اســتثناء في اللّغة قد يكون دالاّ أيضا، فيشــكّل بذلك قاعدة، أما اســتثنائيته فتكمن في انتمائه إلى منظومــة لغويّة مختلفة، وإلى صنف اجتماعي مغاير. فكلمــة dégage، لغة المدوّنين أبناء النّخبة، وبالرغم مما فيها من حســم وقدرة إنجازية إنشائية، ما دامت تمثّل إمضاء الثورة ولحظتها الحاسمة،فإنها قد توحي بافتكاكها من أهلها، وتحويلها من الهامش إلى المركز في لحظة تمويهية تسعى إلى أن تغلّف بعدها الطبقي. وتخفي صوت الهامش ولغته الثائرة.

٦) لغة الدّعاية السياسية:

ليــس مضمون الأحــزاب وبرامجها هو الذي يميّزها عن بعضها البعض بل تجلّيها، على معنى الشّــكل الذي تمنحه لنفســها. إنّها تقول الــشيء ذاته، في الكثير من الأحيان، ولكن بأشــكال مختلفة. فالحرب بينها حرب أشكال وألوان وشعارات دون المرجعيات إلاّ فيما تعلّق بالإصرار، تقريرا، عن مدنية الدّولة، ذلك المبدأ الذي لا تعلنه حركة النهضة ولا تخفيه، مثلما لا يُعلن حزب العمّال الشّيوعي التونسي شيوعيته إلاّ إيحاءً، فيُقصي

الطّبقة تماما من لغته الدعائيّة ويستبدلها بـ:» أفراد المجتمع» و»المساواة التّامة بين الجنسين». فدون هذا، أي تجلّي الأحزاب وكيفيّة ظهورها شكلا، يصعب عليك التمييز بين هذا وذاك.

ولئن غاب صوت خطاب الدين السياسي في لغة الشّعارات الثوريّة، فقد تكثّف في الدعاية السياسيّة قبيل انتخابات المجلس الوطني التأسيسي. لقد عرفت « النهضة» كيف تتجلّى، وكيف تجلب العين التي ترى، في حين ساهمت أحزاب أخرى وقوى « مستقلّة» في استبعاد نفسها شكلا، أي مظهرا. ومعلوم أنّ التجلّي حمّال للدلالة والمعنى. أثبت هذا الحزب العائدة قيادته لتوّها من لندن أنّه يعرف لغة التّسويق السياسي، فبثّ رسائل واضحة في مستويات مختلفة، وأهمّها اللون بما هو بنية دلالية تُجري علاقة معادلة بين الشّكل (الأزرق والأبيض) والمضمون (المعاني الذي يريد تبليغها): الرسالة الأولى، وإذا ما أجرينا مقاربة سيميولوجية للألوان، تحرص فيها النهضة على تكسير النّمطيات ومسح الأفكار المُسبقة والسائدة عنها، ومنها أنّها حركة دينيــة محافظة، تنظر إلى الوراء ولا ترى الأفق القادم. ولقد بدا هذا، خصوصاً في لونها الأزرق الذي اختارته في الدعاية السياسيّة.

هــذا اللون غربيّ المزاج والثّقافــة، فهو حاضر في جلّ الأعلام الغربيّة، وينفتح عــلى العالم ويتخطّى الحواجز، وتَعْبُر به «النّهضة»، بالقصد أو بدونه، نحو المتوسّــط ونحو الغرب. ثمّ إنّها تبلّغ رسائل دينية إلى أنصارها، إذ الأزرق كما هو معلوم يشير إلى السماء، إلى السماوات العُلا والحكمة والجنّة، وإلى كاظمي الغيظ. وفي رسالة ثالثة سياسيّة تُطمئن «النهضة» النّاخبين في الدّاخل بما يبعثه هذا اللون من معاني العدالة والتّسامح والتّهدئة. ومن المثير هنا معاينة تغيّرٍ في لون بعض سيّارات وزارة الداخليّة التونسيّة جرى بقصد أو بغير قصد لتتطابق مــع هذا اللون. وفي هذا مرور من الأســود بقتامته وعنفــه إلى الأزرق بهدوئه ولطفه. أمّا الرّســالة الرّابعة فجماليّة موجّهة للشباب ؛فالأزرق هو لون الموضة هذه السّنة. وفي هذا نوع من المزايدة على من يحتكرون فكرة الانفتاح والاقتراب من النكهة الغربيّة في الثقافة والذّوق واللباس. الأزرق، إذاً، في هذا السّياق الانتخابي، منــاورة دعائيّة من حزب أصبح اليوم حاكما، تدفع باتّجــاه إخفاء ما خفي من نمطيات تربطها بالماضي، كأن لا تراها إلاّ في اللون الأخضر بما يحمله، كلاســيكيا، من علاقة بالمرجعية الإســلاميّة. ولقد تركت كذلك اللون البنفســجي الذي افتكّه منها، بطريقة انقلابيّة، النّظام السّــابق، وحافظت جزئيا على اللون الأبيض بإشــاراته الدّينيّــة والسّــنّيّة المحمّديّة، وبعلاماته التي تدلّ على الصّفاء والطّهــارة والعذريّة والنور، نور الماضي. ويبدو واضحا أنّ الجمع بين الأبيض والأزرق ليس اعتباطيّا بل قويّ الدّلالة والرّمز، والرّمز علامة اتفاقيّة بين النّاس.

ولئن تضمّن اللون في الدعاية السياسية «للنهضة» إيحاءات دينية، فقد اختفت مثل هذه الدّلالة، تقريرا أو إيحاءً، في نصّها المكتوب، فلم يظهر إلاّ مرّة واحدة في الفصل الأوّل من الدســتور الذي تعاقد عليه المجتمع منذ الاســتقلال: «تونس دولة مدنيّة، الإسلام دينها والعربيّة لغتها». ومن المثير ملاحظة أنّ أهم حقل دلاليّ

بــرز في المكتــوب يحيل إلى المعــاني الكبرى لقيم الحداثة وأوّلهــا الحريّة التي بــدت إحصائيا مفتاح النّص الدعائيّ: «ندافع عن الحرّيات العامّة والأساسيّة، ندافع عن حرّيّة الفكر والمعتقد والتّنظّم، ندافع عن مبادئ المواطنة والحداثة والعدالة الاجتماعية...». هكذا تُوَظّف الدلالة التّقريريّة في ما هو مكتوب حين التّعبير عن المرجعية الدينيّة (Dénotation)، وأبرز ما فيها وحدة دالّة مكتوبة بخط عريض تُسيطر على بقية الوحدات الدّالة في هذا النصّ: «أوفياء.. . صادقون.. .» ، لتشــير إلى لغة سياســيّة أخرى غير مكيافيليّة، أو هكذا تريد أن تُظهــر، لغــة قِوامها الأخلاق ممثلة في الوفاء والصّدق في السياســة. غير أنّ هذه الكتابة التي تجعل من الهويّة العربية الإســلامية رهانا لا يميّز بين الهمزة الوصليّة والهمزة القطعيّة. ويوظّف الإيحاء الديني فقط فيما يمكن أن يكون حمّال أوجه عند التأويل، كالصورة واللّون. وهذا التخفّي مردّه الحرص على إبراز مدنيّة حــزب دينيّ، عقيديّ. هذا ما فعله «القطب الحداثي الديمقراطي»، وبشــكل معكوس، إذ حرص على إخفاء لائكيته ورفضه لمقصد الهوّيّة فيما حدث من تغيير، فسارع في نصّه الدعائي إلى إقرار الفصل الأوّل من دستور ١٩٥٩ الذي يُعلن إســلام الدولة. بيد أنّ نخبويته غير قابلة للإخفاء بل بادية للعيان في أغلب مفاصل هذا النصّ الفوقي، بدءا من طغيان المكتوب على بقيّة الدّوال الأخرى، والمكتوب بلغته الصّعبة لا يمكن للإنسان العادي أن يفهمه، وللأميّ أن يقرأه.

وكمحصّلــة لكلّ هــذا، تمزج «النّهضة» دعايتها الانتخابيّة بشيء من مســحوق الليبراليــة (الانفتاح، وحرّيّة العمل، والاستثمار، والمبادرة)، ومن الاشتراكيّة (عدالة، نوزّع الخيرات بالعدل، القضاء على الفقر والتّهميش) ومــن معاني الحداثة (تونس منارة العقل والعلم، الحرية، التحرّر، الحرّيات العامّة، حرّية العمل)، وممّا قلّ من الإســلام (ندافع عن السائل والمحروم، شــجرة مباركة أصلها طيّب وفرعها في السّماء). فالإسلام، وبشكل مفارق، هو أقلّ الحقول الدّلاليّة حضورا في اللّغة المكتوبة في البيانات السياســية الدعائيّة «للنهضة». هكذا يبدو لديها حرصها واضحا على تحرير لغتها الدعائيّة مما علِق بها من صورة تجعلها لا ترى إلاّ «الماضي الذي لا يمضي». ولكنّ مشكلة «النّهضة» القادمة قد تكون فيما ستحاول إنتاجه من نموذج جماليّ وثقافيّ لا ينسجم انســجاما محكما مع التاريخ والأنتروبولوجيا في بلد لم يعــرف في أيّ لحظة من لحظاته الصورة الإخوانيّة في الحكم والثقافة والحياة العامّة. لهذا المجتمع شعائره الجماليّة الخاصّة، وبذوره التّاريخيّة التي نسجت كيانا ثقافيا تونسيّا ولكنّه مفتوح على كلّ الحقول.

ولئن كثُرت رسائل «النّهضة» في دعايتها السّياسيّة، فقد تقشّفت فيها بقيّة الأحزاب المترشّحة. اكتفى «المؤتمر مــن أجل الجمهوريّة»، مثلا، بإعطاء انطباع يفيد تمرّده على الشّــكل الاجتماعي الذي يتعالى على الإنســان العــادي فيردّ الضعف قوّة، بجعل النظّارة التي كانت محلّ ســخرية شــعارا يســتهوي النّاس ويدفعهم إلى الإحســاس بالإثم لأنّهم رأوها ضعفا. وبدا حزب العمّال الشيوعي التونسي في مستوى رسائله الدعائيّة أقرب إلى المحافظة منه إلى إبداع رؤية لشــيوعية جديدة، إذ لازال مصرّا على علامات روســيا البلشفيّة زمن لينين،

كالمطرقة والمنجل (العامل والفلاّح)، في سـياق اقتصادي تونسي لا يسـمح مؤسّسـيا بتشـكّل وعي طبقي. فالمصانع والمعامل التي كانت تسـمح بنموّه لم تعد موجـودة خصوصاً في بلد مثل تونس تفكّكت مصانعه ومعامله التي كانت تسمح بخلق مثل هذا الوعي.

أمّا «حركة الشّعب» فقد اختارت الجمل رمزا لها في جغرافيات اجتماعية وثقافيّة متباعدة، ممّا قد لا يجعل مـن هذه الرّمزيّة علامـة اتفاقيّة بين مختلف فئات المجتمع التونسي. فشـعار الجمل يمثّل علامة فارغة في منطقـة انتخابيّة مدينية لا تعرف الجمل إلاّ في الصـورة (تونس الأولى)، في البطاقات البريديّة، مثلا، التي لا يقبل عليها سوى القليل من السوّاح، مع أنّ جهة المرسى تجعل من الجمل رمزا لها، ولكنّه رمز بدون مرجع (référent)، عجائبيّ بتوحّش شـكله (exotique)، يقبل عليه الصّغار والكبار ليتلمّسونه ويصوّرونه. هكذا يبدو اللّون ومعه بقيّة العناصر الدعائيّة موضوعا للرّهان وللصّراع بين القوى السّياسية.

٧) جولان الشّعار من تونس إلى مصر:

ثمّة علاقة قُربى بين الشّـعار التونسي والشـعار المصري، تُشِـيعُ فينا غريزة التّواصلِ، وتذكّرنا بما كان بيننا من وشـائجَ الثقافةِ حين امتدّت أذرع التاريخ من المهديّة إلى قاهرة المعز. ارتحل الشّـعار من تونس: « الشّعب يُريد إسـقاط الحكومة» فَعَلا صداهُ هادرا في ميدان التحرير: «الشعب يريد إسقاط النّظام». وفي استهداف النّظام، في السّياق المصري، رغبة في تفكيك النّسق بأكمله، لأنّ مصرَ تعرف بأنّ حاكمها توغّل بعمق في أجهزة الدّولة منذ أن عرف كيف يُحكِم قبضته مسـاحيا على منبع الحياة فيها الذي هو النّيل. اللّغة تجمعنا كلّما فرّقتنا السّـبل عبر السّياسـة والرّياضة والمنافسة الاستثماريّة. كمْ هي سـاحرة هذه اللّغة ومجدّدة للحياة، يُطلقها أبو القاسـم الشّـابي من هنا، من تونس في عشرينات القرن الماضي لتحتفي بها مصر قبل تونس عبر مجلّة «أبولو»، ثمّ تعود مظفّرة باعتراف مصريّ لتصبح نشيدا وطنيا تونسيا منذ ولادة دولة الاستقلال: «إذا الشّعب يوما أراد الحياة». وها هو صدر بيت قصيد يدفع كلّ المنطقة العربيّة إلى استجماع ما تبقى لها من قلاع بعد أن كادت تضعهم العولمة في هامش التاريخ، فإذا بشـارعهم ينتقم من حكّامه الفاسـدين ويواصل الـصّراع شـاهرا صدر بيت قصيد، يكفي مجرّد التّلويح به ليُصنَع الأمـل، وتضيق قدرة الحاكم على المناورة، يطارده دم سخيّ يعيد إنتاج الحياة.

سافر الشّعار التونسي، إذاً، إلى مصر بصرامته وبأسه وإصراره المباغت على حقّه في الحياة الحرّة، يصلها كأنّه خارج لتوّه من فوهة بندقيّة، فيتأنسـن فيها. وتترتّب الأولويّات بحسـب السياق المصري ويومياته ونكهته المازحة، والهازئة من شـدّة الفقر وغلاء المعيشة ومن الاسـتبداد السياسي وطول بقائه، فتختار من الأحرف أخفّها، ومن الصياغة أبسطها:

ويا سوزان قولي للبيه كيلو العدْس بعشره جنيه

ويا سوزان قولي للبيـــه ربع قرن كفاية عليـــه

وحسني بيه يا حسني بيه قولي محاصر غزّه ليـــه

آه يا حكومة هشّك بشّك بُكْرَه الشّعب المصري يكشّك

الإنسان المصريّ يمزح في أشدّ لحظاته غضبا،وينكّتُ حين يثور:»لو نجحت مظاهرات مصر، حتقابلْ تونس في النهائي»، « الشرطة في خدمة الشعب، سخّنت الميّه قبل ما ترشّها على المتظاهرين»، ويرفع لافتات ساخرة: «كلّموه بالعبري يمكن يفهم»، «اِرحل عايز أتجوّزْ»، «مش حنرحل من الميدان حتى لو طلّقت سوزان».

هكـذا لا تَنـسى مصر وهي تدفن موتاها بأن تنشـغِل بالتفكير في الخبز والماء والعدَس، انشـغالا تفيض منه وعنه روح الفكاهة والدعابة المصريّة. أمّا الشعار التّونسي فصمٌّ، حارٌّ وحارقٌ، لا يرْضى بأنصاف الحلول، كالمزاج الاجتماعي الذي أنتجه، يَلعن خصمه ويُعلن بإصرارٍ قصاصه من رموز الفسـاد، ولا يزجّ بنفسـه في المسـاومة، فإمّـا أن يولد أهله تماما أو يموتـون تماما: « أوفياء، أوفياءْ، لدماء الشّـهداء». وكلّما أطلقت الشّرطة رصاصها، أطلق الشارع شعاره: «الكرطوش حي حيْ والحجّامة في دبي»، «يا بوليس فيق، فيقْ، الحجامة تحكم فيكْ».

كمْ هي مثيرة رحلة الملاحم الشّـعبيّة كما تنقلها اللغة من أرض ثقافيّة إلى أخرى، وخصوصاً إذا تعلّق الأمر بالتقاطعات التونسيّة المصريّة التي لازال التاريخ يخفي بعض أبعادها السّحريّة، ومنها التغريدة الهلاليّة وهي تتنقّل بين الصّعيد ومضارب الهمامة، روّاد الآفاق النائية، تلك التغريدة التّي سـعى عبد الرّحمان الأبنودي إلى اقتفاء أثرها من هنا وهناك، وبين هذا وذاك. في مصر، لم يعد الزّحام قاحلا كما رآه محمود درويش في «رحلة المتنبيّ إلى مصر». بل صار يضجّ بالمعنى بعد ما حدث ويحدثُ هذه الأيّام ممّا لا يكسره العزم. ولكنّه معنى منقـوصٌ من قيمة الحرّية كما وصلني من مدوّنة الشـعارات التّي رتّلتهـا الحناجر المصريّة. فالحرّيّة، بمعناها التقريري الحرفي، لم يكن لها متّسـع فيها. ولكن أوليسـت الحرّية رغيفًا ؟ ما الحرّيّة إن لم تكن في رغيف الخبز أيضا لشـعب بلغ التسـعين مليونا أو أقلّ أو أكثر ؟ أوليس الذي يُنادي بالحرّيّة يَنشدُ كذلك فيما يَنشد ويُنشِدُ رغيفا وحليبا لشـعب لم يتجاوز في الحالة التونسـيّة أحد عشر مليونا منهم نصف مليون من البشر الذين إن كانوا في الأحياء، فهم ميّتون ما داموا يرزحون تحت خطّ الفقر ؟ هكذا يمرّ بنا الشّعار من اللغة إلى الحياة.

٨) الكلمة للجدران

الانتصار والغنيمة السياسيّة:

بعد هروب بن علي، حلّت اللغة محلّ الصمت، وتحوّلت الجدران إلى نصّ مقروء، بل إلى طائفة من النّصوص تتقاطـع، بعد أن كانت الكلمة المعارضـة مطاردة في كلّ مكان. من هنا تبدأ تونس الجديدة، ومن هنا يبدأ أوّل الأمل. هذا يقتل ذاك، هذه الكلمات الجديدة الثائرة تمسـح أثر الماضي وألوانه البنفسجيّة وصوره التي

كانت تحاول أن تضفي بلاغة سياسـية بدهاء الإخراج على عسـكريّ لبس لبوس الرئيس. لقد تمّ التخلّص في لمح البصر من اللّون البنفسجيّ الذي كان مُسقطا على الأذواق قصرا، وأحرقت صور بن علي بالسّرعة ذاتها. وبدأت صور جديدة تعلّق ونصوص أخرى تُكتب، منها ما يسـتحضر عمر المختار بطل المقاومة الليبية زمن الفاشية: «نحن لن نستسلم، ننتصر أو نموت» ، «لن نعود حتّى تسقط بقايا النظام»، «قبر أم الحلاقة بثلاثة مليارات»، « Enfin libre ».

القصبة الأولى دالّ مدلولها الانتصار والرّغبة في تثبيته. وكان لابدّ من قافلة تنطلق من الهامش، ومنه ولدت الفكرة، من منزل بوزيّان، المنذورون للجمرة، بلد أوّل شهيد في الثورة (محمد العماري)، لتتعزّز ببعض أهالي المكناسي، ثمّ لتثبّت بمن أراد شـدّ الرّحال من الرّقاب إلى الشّـمال، إلى المركـز. ومعهم جاءوا برائحة الأرض وجـاءوا برائحة التّراب، فأودعوها حياة أخرى ولو للحظات. أمّا القصبة الثانية فكان عنوانها الغنيمة، وهذا أمـر بات معروفـا في تاريخ الثورات، إذ هناك من يصنعها وهناك من يسـتفيد منها. وحلّت، إذاً، كلّ قافلة تحمل معها عنوان الجهة أو العشـيرة. حطّوا الرّحال في مشـهد تاريخي أمام القصبة، رمز المركزيّة السّياسيّة منذ العهد الحفصي. وقبل ذلك كانت الأرض ضيّقة، منتزعة ومراقبة، لا سـاحة فيها لكلمة واحدة معارضة، فصمتت الأفواه حتّى حاك أحدهم فمه كما تُحاك الثّياب، إضرابا عن الكلام، فإذا بها تعود بعد عصيان مصرّ إلى أهلها ومن أوسـع أبوابها. وتعود ولو للحظـات إلى الطّبقات الجامدة التي لا تتكلّم في العادة بل يُتكلّم مـن خلالها. وها هي اليوم تصرخ وتعلن عن هويتهـا بعلاماتها الخاصّة، ومنها خيمة عربيّة تُنصب في باب القصبة، إيذانا بعنوان المعركة وبداية عهد يَبني فيه الهامش عناصر القوّة.

وكان لا بدّ من أن يرسـموا علامات هذه الثورة على الجدران؛ خيمة، ومكنسـة، ومرقوم بربري ولغة تذكّر بعصبيّة القبيلة. في القصبة الأولى ملحمة شـعبيّة صاغت على الجدران نصّا جماعيّا مبدعا، عنوانه «الشعب يريد إسقاط الحكومة»، فنادوا:» اعتصام، اعتصام حتّى يسقط النّظام». وفي القصبة الثانية صيغ نصّ بدأت تفوح منه رائحة السّياسـة. وعلى الجهة المقابلة مارّة من هنا وهناك مندهشـون ويتذمّرون خفيةً من هذا الزّحـف الآتي من الجنـوب. وفي كلّ الأحوال فإنّ في القصبة الأولى وفي القصبة الثانية موقف، مكشـوف أو مضمر، من أن لا تأخذ الثورة عنوان الياسمين: «ثورة الياسمين»، لأنّ أرض من قاموا بالعصيان لا تنبت مثل هذه النبتة الطيّبة، الناعمة. القصبة الآن لهم، ولو إلى حين. وعلى المثقّف والشاعر والسّياسي أن يكون معهم، مع الإنسان العادي، مع الذي كان يقاتل. ولكنّها أيضا للجميع، فهتفوا بصوت واحد: « واجب حلّ الحكومة، واجب حلّ التّجمّع، واجب مجلس تأسيسي، واجب ديمقراطية، واجب ثورة شعبية، واجب ضد الرّجعيّة».

لقـد كانوا في حاجة إلى تدريب أصواتهم من جديد على الصّراخ بعد إسـكات قـصريّ طال، فتفطنوا إلى ما فيهـم من عطش إلى الفرح. وجاءت أصـوات حناجرهم، في البداية كنصوصهم المعلّقة على جدران القصبة

واعدة بمشروع حداثي، ولكنّه عاد ليطفح بمزاج عشائريّ في القصبة الثانية. لقد تمترست كل عشيرة وكلّ جهة على حده في مدخل القصبة، وأخذت موضعا موازيا عن غيرها وعلّقت عنوانها هناك تسجيلا لحضورها ومشاركتها في هذه الهبّة أو لعلّها «الفزعة»: «ثورة شباب الحامة»، «أحفاد الدغباجي قادمون»، « الملاّسين مع الثورة»، «الفراشيش وصلوا»، « أهالي منزل بوزيان مصرّون على إسقاط الحكومة». وكانت كلّ جهة تسعى إلى أن تزايد على الأخرى بالنّضال وقوّة مشاركتها في الثورة بحثا عن توازن جديد للتوزان القديم.

ولأنّ البدايات كانت كذلك فيها عبق العشيرة، فإنّ عشائر سياسية بدأت تتشكّل في الأشهر الأخيرة التي تلت اعتصامات القصبة، حتّى أنّ الأحزاب السّياسيّة صارت تتمترس اليوم في طموحاتها الانتخابية خلف من له عصبيّة تسانده، بصرف النظر عن علاقته بالفكر السّياسي للحزب. وما فعلوا ذلك إلاّ بعد أن انتبهوا إلى ما يجري في القصبة، وما يجري فيها (القصبة) فقر يهزم الرّخام؛ ثأر الرّيف من عنف رمزيّ دفين لطالما مارسته المدينة عليه؛ الرّيف الذي هو المقاومة والأرض والتّاريخ يأتي ليقول كفى. وقوله رسمه على أبواب القصبة وجدرانها:» أحفاد الدّغباجي والطاهر الأسود ومحمد علي والطّاهر الحدّاد قادمون». وهؤلاء قادة ميدانيون يمثّلون شرعية المقاومة الحقيقية في مقابل الشّرعيات المزيّفة. وما أحوج قصبة اليوم إليهم لتحريرها. فهي، بما هي علامة الثّراء ورمز السيادة فيما مضى، بدت في نصوصهم التي رسموها على جدرانها محتلّة. فجاءها الرّيف لتحريرها وإعادة إحيائها بعد أن كانت معطّلة، جثّة هامدة، بفعل هيمنة القصر عليها. لكأنّ الاستعمار متواصل، فكانت الثورة على الاستعمار الجديد الذي فرضه بن علي بسياسته الجشعة التي انتهت به إلى الهروب ذليلا مطاردا. والقصبة الدولة كانت ممنوعة ضمنا على «الإنسان العادي»، فجاءها ثائرا هذه المرّة ليردّها سكنا حتى تعود إليها حيويتها. ولكنّ الأمر يؤول في النهاية إلى أسلاك شائكة توحي ببرودة جليديّة لا تقبل البشر ولا تقبل الحياة.

كان مزاج الاعتصام مثيرا، إذ يجمع بين التصميم والنشوة والذهول، ولعلّ أهمّ ما فيه ذاك الجمع بصيغة المفرد الذي توّحد في «الشّعب يريد...»، وكلّما رُفع هذا الشّعار حقّق ما راهن عليه. واللفظ جسم روحه المعنى، ومعناه «إرادة حياة» لشعب سئم ليله الطويل فهبّ لكسر قيوده. لقد تجمّع، في لحظة نادرة من تاريخ العرب، ما يُقارب خمسين ألفاً من المتظاهرين وهتفوا:» الشّعب يريد إسقاط الحكومة»، فأسقطها في سابقة أولى في التاريخ المعاصر، شرّعت حقّ المواطن في تغيير الحاكم ومقاومة الاستبداد، فإذا بثورة في مصر تطيح بنظام جاوز الثلاثين في الحكم، وإذا بمواجهة داميّة بين كتائب القذافي في ليبيا والثوّار، وإذا بثورة اليمن تنتهي بعلي عبد اللّه صالح في مستشفى سعودي وقد أصيب في الرأس والصّدر وهو في قصره، وها هي سوريا تنزف ومع ذلك تهتف «الشّعب يريد إسقاط النّظام». وها هي الصين تلغي مهرجانا سنويّا تحتفي فيه بالياسمين.

والكتابــة عــلى جدار القصبة برخامه من قبل فاعلين، قد يكون بعضهم يقــف أمامها لأوّل مرّة تمثّل تطاولا مــن الهامش على المركز، والرغبة في تغيير موازين القوى الاجتماعية باتجاه الأطراف. ولكن، ها هو الباجي قائد الســبسي، المديني بامتياز، والقادم من عهد البايات يعود إليها ليطرد من كان فيها من «العامّة». وها هو رجل آخر «نهضويّ»، من السّــاحل، يخلفه فيها بعد سنة من الثورة. فتتواصل التعبيرات الاحتجاجية في هذه الأطراف المقصيّة وكأنّ شيئا لم يكنْ.

الكلمة صارت للجدران، كما كانت في انتفاضة أيار ١٩٦٨ في فرنســا. لقد عبّر الاعتصام عن أهدافه ومطالبه في نــصّ مكتــوب ومصوّر على الجدار الأمامي للقصبــة، وفي مدخل الوزارة الأولى. فــكان مثل هذا النّص:» مجلس دســتوري، دســتور جديد، لتسقط الحكومة، لن نبيع دماء شــهدائنا بأيّ ثمن كان، RCD dégage، نعم لحكومة وطنيين مخلصين للوطن والشعب، « The power of people » . لقد بدا هذا المكان المتعالي عــلى العامّة في العادة يلعن ماضيه ويعد بشيء ما جديد، وبروح شــابّة، تســعى إلى التخلّص من عالم هرم متــآكل ومزيّف. كان الإصرار كبيرا والعــزم قويا، كأنّهم يخافون أن يخطئوا الوجود فيفوتهم، وكانوا يعلمون أو يشــعرون بأنّ أيّ خطوة إلى الوراء تعادل الهلاك، وأنّ نصف الثورة تعني حفر مقابرهم بأيديهم، فساروا قُدُما يطلبون المستقبل ويلعنون الماضي والحاضر، يلعنون ما كان بداخلهم من خوف وصمت وعجز، لكأنهم انتبهوا إلى أنّ الثورة لا تكون إلاّ بتكســير ما بداخلهم من أصفاد، ويلعنون ركام الفســاد وركنه، ويطلبون حكومة ذكيّة. فهذا أحدهم يحمل رســما كاريكاتوريا لحمار وقد كتب عليه: » زين البهائم... هذا كلّه من الحجّامــة (الحلاّقة) .« والصورة تســاند النصّ المكتوب عــلى الجدار، وأحيانا تنزل الصــورة من الجدار إلى قارعة الطريق إمعانا في الإهانة. فهذه عربة الجيش تقطع الطريق وتدهس بتلذّذ صورة بن علي الذي كان عسكريا في الأصل. ولكنّ المساحة التي تشدّني فيها هي تلك العجلة العسكرية التي تدهس يد الرئيس وقد وضعها على صدره كضرب من التّحيّة البروتوكولية المعروفة لديه، هذه اليد التي صارت علامة على الفســاد وهــدر الإمكانات تداس عــلى قارعة الطّريق، إيذانا بمرحلة جديدة. وهذه النقطة التي تخرج من المشــهد كسهم لتعبرني هي، على صغر مساحتها في الصورة، تمثّل ثقلها، وبدونها تظلّ الصورة عصيّة على القراءة. إنّها، كما يقول عنها رولان بارت، كالوصمة أو العلامة التي تخلّفها آلة حادّة . ولعلها هذه الصدفة التي جعلت عربة الجيش لا تختار إلاّ قطع اليد التي اتّخذت، كضرب من المكر الســياسي، موضعا في القلب من الجســد. هي صورة خفيّة الاســم، ولكنّ العجلة التي تدور على اليد تشــير إلى توازنات جديدة ممكنة في القادم من السنين. فليس تحت هذه اليد إلا الفساد. هناك تطابق عجيب بين ما يمكن أن توحي به الصورة، صدفة أو قصدا، وبين النظرة إلى الحاكم والموقف منه.

الصورة الثانية، مســنودة إلى جدار، تحيل إلى رســم ســاخر، ســاخط، على موضوعه، حتّى أنّه يرى ملامحه غــير جديــرة بعناصر البلاغة. والإيحــاء فيها لا يحيل إلى تمرين تخييلي، فالوجــه دالّ لا مدلول له، فقير من

حيــث قدرتــه على إنتاج البلاغــة، موصوف بلا شرط، محروم من كلّ قدرة على الإيحــاء إلاّ ما له في التمثّل الاجتماعــي من دلالة تقريرية مباشرة: ديكتاتور، دمويّ، فظّ، غليظ القلب. فكانت قطرات الدم تتســاقط من لقب البوعزيزي، لتتقبّلها الملامح الغليظة بشراهة ســادية، رغم أنّ هذه الدمّاء تخنقه، إذ حوّلت ربطة عنقه العســكرية إلى حبل يحيط به فيخنقه ولا يبالي. وإذا ما كان لهذه الصورة قدرة على توليد الاســتعارة، مع ضعفها، فقد تحيل إلى الهامة، مصّاص الدّماء، « vampire »، وما فيها من معاني الاســترقاق وابتزاز شره للمال. هذا المصطنع « Simulacre »، أو بالأحرى هذه النسخة، تعيد إنتاج ما يتداوله النّاس في سرّهم عن هذا الحاكم فترة حكمه، ممّا يجعلها لا تتعدّى مستوى البلاغة العادية، البسيطة « rhétorique banale »، لأنّها لا تتعدى مستوى الخبر الهزيل، ما دام معروفا.

هذه الندرة البلاغية في الملامح، وهذا الفقر في الإيحاء لوجه المخلوع، وملامحه تقيم علاقة تماثل ما يحمله النّاس عنه من صورة تحيل إلى الجهل. فالمجتمع التونسي، وهذا كنزعة عامّة، يرى نفسه جديرا بحاكم ذكيّ. ولكنّ حاكمه ليس كذلك، وإلاّ لكان استوعب ما يقوله « Bacon »: «إذا وافقك الجميع وصفّق لك، فراجع نفسك على الفور لترى أين قصّرت أو أخطأت» . ولو كان ذكيّا عارفا بالسياسة، وبحقيقة حجمه ووزنه لأدرك زيف ما يُكتب عنه من تمجيد يصل حدّ تشبيه وصوله إلى الحكم «بعودة حنّبعل»، وأنّ السابع من نوفمبر يمثّل «ثورة هادئة». كلّ رسوم الرئيس المخلوع أو صوره تحيل إلى بلاغة فقيرة، أي إلى دلالة تقريرية قوية« dénotation» ولعل هذا الضرب من البلاغة السياسية يكثر حينما يكون الجمهور عالي الفطنة والتكوين. أمّا البلاغة القويّة فتتوافق مع جمهور شعبيّ يرى بعين عالية حاكمه رغم فقره السياسي.

وهــذه الصــورة، على ما فيها مــن دلالة تقريرية مباشرة، تــكاد تلخّص قصّة ثورة تونــس، ثورة قامت ضد لصوصية سرقت حتّى لبن الطّفل، وحبّة القمح، وحجر الجبال، فخنقت نفســها بنفسها حين قدّم بعض أبناء تونس أنفســهم قرابين لتبقى الحياة ممكنة على أرضها التي كادت تتحوّل إلى هاوية، ولكنّ صورة الاحتراق اخترعت أملا جديدا ليصبح المستقبل «سيّدا للأيّام».

الهوامش:

1- Barthes, Roland, Mythologies, Paris : Seuil, 1957, p. 187

٢- مصطفــى صفوان، الكلام أو الموت، (ترجمة مصطفى حجازي، المنظمة العربية للترجمة)، بيروت، مركز دراســات الوحدة العربية، ٢٠٠٨، ص. ٣٥

٣- علي الجارم ومصطفى صفوان، البلاغة الواضحة، تونس : دار المعارف للطباعة والنّشر، ٢٠٠٦، ص. ٢٦٥

4 Jean Paul Sartre, in Franz Fanon, Les damnés de la terre, (préface de Sartre), Paris: François

Maspero, 1961, p.12

٥- محمود درويش، ديوان محمود درويش، المجلّد الثاني، بيروت، دار العودة، ص. ١٠٨.

6- Roland Barthes, La chambre claire, op.cit., p. 49

7- Bacon,(F.) : Novum Organum, introd. trad. et notes par Michel Malherbe et J.M. Pousseur, PUF, 1986